من تراب الطريق! (١٩٢) المحامى الصديق الشاعر ! (*)

كان من حظى أن تعرفت واقتربت فى السنوات الأخيرة، من المحامى الشاعر الأديب الأستاذ الكبير محمود توفيق .. أهدانى سلفا ديوانى شعر والده الشاعر الكبير محمد توفيق على (١٨٨٢-١٩٣٧)، تمتعت بما قرأته فيهما، ثم أهدانى فى ٢٠٠٦/٣/٦ مختارات من شعره هو .. شعر الابن محمود توفيق، إصدار الهيئة المصرية العامة للكتاب (٢٠٠٦) .. وحسنا فعلت .. ضمنته بعض القصائد التى شملتها دواوينه : أعياد، أنشودة للوادى المقدس، ما بعد الحب، قصائد فى الحب والحزن، دمع على طلل.

ولأنى أعرف سيرة الصديق العزيز النجم الأسطع الأستاذ محمود توفيق، فإننى قفزت مباشرة إلى محتوى الأشعار المختارة، أنهل وأتمتع، حتى إذا ما عنّ لى أن أكتب ولو إشارة إلى موهبة وشعر هذا المحامى الشاعر الأديب، وجدتنى أعود إلى الصديق الكبير الذى دعانا يومًا إلى عشاء كبير فى بيته : الشاعر الدكتور حسن فتح الباب . وجدته فى تقديمه الضافى للكتاب - يتوقف فى مقدرة وتمكن عند أكثر مما كان فى ظنّى أن أصل إليه . بدأ بالعمومة المعنوية التى أرى أنها تربطنى أنا الآخر بالأستاذ الأكبر محمود توفيق، فهو فى مقدمة رجال القانون والمحاماة الذين لم تعقهم أدوارهم الكبيرة فى أداء رسالة المحاماة، عن الإبداع الشعرى والأدبى . يعقد الشاعر الدكتور حسن فتح الباب مقارنة بين القانون والشعر

(*) المال ٢٠٠٩/١/١٣

ليكشف كيف تقوم بينهما علاقة وثيقة فى دفاعهما المشترك عن حق الإنسان فى الحياة والحرية والعدالة . وعن شاعرنا محمود توفيق، يقول الدكتور فتح الباب - محقًا - أنه فى طليعة الشعراء المعاصرين الذين جمعوا بين الشعر والقانون، راويًا مختارات من مواقفه الساطعة فى المحاماة، ومنها رده الاعتبار للبطل يوسف صديق فى إقامة تمثال له إلى جوار أعضاء مجلس قيادة ثورة (١٩٥٢) فى المتحف الحربى، بعد أن كان قد حال دون ذلك انحيازه مع زميله المناضل خالد محيى الدين إلى الديمقراطية وإطلاق الحريات.

لم ينس الشاعر الدكتور فتح الباب، الدور السياسى البارز للأستاذ محمود توفيق، سواء فى منظمة الشعوب الأفريقية والآسيوية، واللجنة المصرية للتضامن، أم فى أدائه الوطنى الذى دفع به منذ شبابه إلى الاعتقال والسجن ومطاردة السلطات والمحاكمات، بينما شاعرنا - محمود توفيق - صامد كالطود الشامخ لا ينقطع عطاؤه للمحاماة، مثلما لم ينقطع نظمه للشعر الذى فيه أجاد وشف عن موهبة أصيلة مبدعة .

لاغرو - كما لفت الدكتور فتح الباب - أن الجينات الوراثية عن والده الشاعر الكبير محمد توفيق على - وراء موهبته الإبداعية التى صقلتها الأحداث والتجارب التى عاشها، مع سحر الطبيعة الريفية التى كانت رافدًا غذى موهبته فضلا عن تأثره بالمذهب الرومانسى .

تمضى مع أشعار محمود توفيق، وتقديم حسن فتح الباب، لترى كيف تفجرت هذه الموهبة الشعرية الإبداعية منذ ديوانه الأول " أعياد " الذى صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٦٤ متضمنة أشعاره بين (١٩٤٥) إلى (١٩٥٩) .. ثم الأشعار التى تضمنتها دواوينه " أنشودة للوادى المقدس " (١٩٨٥)، وديوان " مابعد الحب "(١٩٨٦)، وديوان " قصائد فى الحب والحزن " (١٩٩٧)، حتى ديوانه " دمع على طلل " (٢٠٠٠) الذى تضمن ما نظمه من أشعار بين (١٩٩٥) حتى صدور الديوان عام (٢٠٠٠) .

ليس بوسعى المفاضلة بين قصائد المحامى الشاعر الرائـع محمـود توفيق، فكلها نتاج قريحة سخية وموهبة رائعة، لهذا الشاعر الثـائر منـذ صباه الباكر، وظلت مصاحبة له حتى الآن فيما يتحفنا بـه مـن قـصائد بجريدة الأهالى من وقت لآخر، تمتزج فيهـا الموهبـة بـالروح الثـائرة وبالومضات الفكرية وبالعاطفة الجياشة التى لم تطفئها سنوات العمر المديد إن شاء الله ..

فى عام (١٩٩٨) كتب محمود توفيق فى قصيدته "حان وقت الرحيل ":

حان وقتُ الرحيل .. فلتحملى يـا ريحُ وَجدى ولتنثرى أشـواقى
ولتطوفى على مواطـن أحبابـى ومغْـدى صحابتـى ورفاقـى
ووداعًا يا مشرق الشمس فى الوادى وعُرس الغروب فى الآفـاق

وفى مايو ٢٠٠٠، تنشر له جريدة الأهالى وداعاً مـن نـوع آخـر : " كانت الدنيا جميلة "، فيقول :

حينمـا كنـا شبابـا واعـدًا نطلب العلـم .. ونزهو بالرجولة..
ونرى فى مصرَ صَـرحًا شَامخـًا للمعالى .. والمروءات الأصيلة ..
وسجـلاً لتـراثٍ خالـدٍ وجمالاً لا تـرى العينُ مثيلـه ..
كان طـعم العيش فى أفواهنـا سلسـبيلا .. كانت الدنيا جميلة ..

ترى ما الذى أذهب الجمال عن الدنيا التى كانت فى عيـون شـاعرنا جميلة؟! يقول فى الختام :

ثم غاصت مصـر فى أحزانهـا وتهاوت تحت أحمال ثقيلـة ..
حين غاض الحب من أيامنـا واستحال الحُلم أشباحا هزيلة ..

إلى القادر الذى وهبَنا الألطـاف الجليلـة .. وحبانـا بعطايـاه الجزيلـة،
يتجـه إليـه محمـود توفـيق فى ختام القصيدة :

فهـو القـادرُ أن يلهمنـا آية الرشـد .. ويهدينا سبيله ..
وهو القـادرُ أن يبعثنـا بعد أن عزت إلى البعث الوسيلة !